# المحاضرة السادسة: الحجاب في سياقات متعددة

**إن الشعب هو الذي يرضى ببؤسه ، لا بل يسعى وراءه.**

## مدخل عام:

لم يكن الفرد في المجتمع الجزائري بعد الاستقلال موضع اهتمام سياسي، لذلك لم يطرح الجسد كموضوع سياسي، بل كانت فكرة الثورة في بعدها الثقافي والصناعي والزراعي تغطي على الكل وتخاطب الفرد من خلال الجماعة، ولم تطلب منه الا الامتثال والمشاركة في مجتمع التحديث وفق مقاربة اشتراكية لا ترى في حريته أو فردانيته أهمية تذكر. بقدر أهمية انخراطه في معركة القطيعة مع الماضي الاستعماري والتمكين للنظام الواحد في صوته وصورته ولونه وخطابه للقيام بالنهضة المنشودة.

لكن مع هذا نلاحظ أن جيل الاستقلال لم يطرح الجسد أو الحجاب كإشكال فكانت المرأة في المدن الكبرى تلبس ما تشاء...وفي المقابل نلاحظ إقصاء للمرأة من أبسط حقوقها في الأرياف وفي الكثير من الاماكن، وعلى الرغم من الصورة المحتشمة لتمكين المرأة في مختلف المجالات لكن تقابلها صورة قاتمة تعكس اقصاءا واسعا للمرأة الجزائرية من ابسط حقوقها، ورغم هذا لم يكن الحجاب مثار جدل.

ولعل مرحلة التعددية السياسية فتحت المجال واسعا للنقاش في الفضاء العام حول الحريات الفردية والدين والهوية بمختلف مكوناتها مما سمح بتأسيس أحزاب

سياسية حاولت أن تستوعب هذا النقاش وتؤطره، لتعمل على صياغة مشروع مجتمع لجزائر ما بعد الاشتراكية، أين احتل الدين مساحة واسعة من النقاش وسط تحولات دولية ومحلية عميقة مكنت للإسلاميين من السيطرة على الحياة العامة والانتشار في كل مكان.

وكان لبروز تيارات دينية تدعو المرأة إلى ارتداء الحجاب، الأثر البالغ في سيطرة مظاهر الحجاب على حساب الحايك، رغم أن هذا الأخير كان رمزا للحشمة، خصوصا وأن تلك الدعوات انطلقت من الأوساط الجامعية. لقد تمكن الإسلاميون من إزاحة **الحايك**[1] كلباس نسوي محتشم من المجتمع الجزائري مع نهاية الثمانينيات ومطلع التسعينيات، إلى أن أزاحه الحجاب لعوامل سياسية ودينية واجتماعية. وكان الحايك هو اللباس الخارجي التقليدي الأول للمرأة في الجزائر ورمز صورتها منذ سقوط الأندلس.

مما يجعل الحجاب في الجزائر والنظر إليه ضمن سياقات تاريخية ونفسية واجتماعية وسياسية تمتاز بالصراع وبالتعقد والتناقض، كون الفرد نفسه ينتمي إلى ثقافة اجتماعية تحمل التناقض ذاته فهي تجمع بين الحداثي والتقليدي، بين المطالب الذاتية للفرد وما يطلب منه اجتماعيا أو دينيا، فالحجاب كما يظهر في الحياة العامة

جود من كل هدف ديني وهوياتي ّ ، مما يكسب الحجاب صبغة مادية صرفة تنفي البعد الروحي والديني له. بل تجتمع في الفرد مجموعة من المحددات على ضوئها يتحدد نوع الحجاب الذي يلبسه.

**ثانيا.الحجاب وصور العنف الرمزي:**

إن السؤال الحقيقي الذي يجب أن نطرحه ونجيب عنه في آن واحد، هو كيف تصبح التصورات الاجتماعية تعبّر عن ثقافة لجماعة منغلقة على نفسها معزولة عن العالم الاجتماعي بثراءه وتنوعه لتحاول بذلك خداع الجميع وتحول تلك الثقافة إلى طبيعة شمولية يجب التمسك بها وتعميمها وإعادة إنتاجها من خلال سيطرتها على مختلف مؤسسات التنشئة الاجتماعية؟

فالحجاب واقع وراهن يتجسد في صورة يحملها الجسد دون أن تحجبه، بل تجعله يعلن عن نفسه في سياق يعكس انتماءات الفرد الجسد الأنثوي، انتماءات ثقافية اجتماعية ودينية أو حتى طبقية، انه تقاطع التاريخ بما يحمله من ثقافة بل انه واقع تاريخي في سياق الحياة اليومية يتجسد في معان رمزية لا تكاد تظهر في عرض تزييني لما هو بديهي.

إن الحجاب يتمظهر في صيغة العرض الجسدي الأنثوي في الفضاء العام، وما الأفراد في المجتمع الا جمهور لا يهمه ما يعتقده بقدر ما يهمه ما يراه أو ما يشاهده في سياق اليومي، انه يراهن على المرأة إذا ما تملّك جسدها الأنثوي وجعله أكثر استجابة للمقدس، لأنه رهان الصلاح ورهان الأخلاق الذي بكسبه يتم صلاح المجتمع.

إنها المرأة صاحبة الجسد الأنثوي الضعيف يراهن على صلاح المجتمع بصلاحها، وفي هذا الرهان حمل ثقيل يلقى عليها وتهرب ذكوري من مسؤوليات تتجاوز المرأة والرجل معا، لذلك المنظومات الفقهية في اغلب المذاهب الإسلامية أكثر تشددا مع المرأة، بل يشكل الفقه في اغلب مسائله فقه المرأة في كل تقاصيل حياتها، فالمرأة تستجيب لقهر المجتمع وسلطته في خضوع تام ودون مقاومة في اغلب الأحيان، هيمنة تحمل كل معاني الالتزام الديني لأنها تستمد شرعيتها من المقدس ومع أن الفرد الذي يمارس القهر والإلزام على المرأة أو حتى مجموعة الأفراد لا يهم إن كانوا ملتزمين.

فالمرأة تبدي استسلامها التام أو تمردها إن أمكن في حركة هي أشبه بحركة المصارع المقهور والتي تدل على الهزيمة والانصياع أمام الناظرين في حجل مبالغ فيه تبرزه حتمية الدور وحتمية تقمصه وفقا الاملاءات جندرية. تماما كما في المسرح فان كل نمط فيزيائي مادي يعبر حتى درجة الإفراط في استخدامه الموكول إلى صاحبه. (المقداد، 2012)

إن المجتمع لا يكتفي بتقسيم الأدوار على الأفراد وفقا للجنس، ولا يكتفي من استخدام هيمنته الذكورية لإقصاء المرأة وإلزامها بتغطية جسدها، بل يجعل منها "**فتنة**" ومثيرة للشهوة الجنسية وحمّ لها مسؤولية الانحلال الخلقي والأخلاقي في المجتمع،

**إذن** فالجسد الأنثوي هو موضوع إدانة أخلاقية للأفراد وهي التي تنتج حكمها الذي يخرج عن حالة مزاجية جماعية، فالجسد الأنثوي هو موضوع صراع حسمته الثقافة الذكورية بهيمنتها على المؤسسات الدينية ومختلف مؤسسات التنشئة

الاجتماعية في المجتمع الجزائري، والتي لا تتردد في تقديم خطاب يؤكد على دونية المرأة وأنها ناقصة عقل وناقصة دين، وهي في حاجة دائمة لوصاية الرجل وقوامته، وما زاد هذا الخطاب الرث قوة هو الخوف القادم مع العولمة بمختلف وسائلها الناعمة التي تؤثر في الأفراد وتقدم المرأة كقنبلة ستدمر المجتمع وتمزق روابطه إذا لم نعرف التحكم فيها. إنها الحل الأمثل لعدم الوصول إلى حالة التفكك التي تعيشها المجتمعات الغربية.

هذا الخطاب بمختلف مضامينه يدعمه فقهاء وفلاسفة وإعلاميون اغلبهم منخرطون في برامج حكومية وسياسيات دول من اجل تجسيد هذه الرؤية، لأنها امتداد لموقف دول المركز في العالم الإسلامي من الحداثة التي قررت معاداتها والانغلاق التام حتى لا تعصف رياح التغيير بمجتمعاتهم، لكن اثبت التطور التاريخي أن الانغلاق رغم التشدد في وسائله أصبح مهددا ورياح التغيير هبت على أكثر من دولة ونظام سياسي وجعلت موجات الربيع العربي بما تحمله من قيم تحرر تهب على الجميع.وهو ما أسهم في ظهور الحركات النسوية في اغلب الدول الإسلامية والعربية لتطالب بالحرية والتحرر من مظاهر الثقافة الذكورية وهيمنتها على المرأةواستُخدِمت حقوق المرأة أيضًا كأداة لمواجهة الشعبية المتزايدة للعناصر المحافظة. ورغم قطع أشواط واسعة فيهنح المرأة حقوق اقتصادية وسياسية واجتماعية أفضل، فإنّ إحداث تأثير في بعض المجالات لا يزال يشكّل تحدًا.

إن الحجاب كتمظهر للعنف الرمزي يمتلك تفسيرات مرحلية في الحياة اليومية، وتساعد على قراءة هذا النمط من العنف من خلال تشكله ولونه ونمطه (عباءة،

جلباب إيراني أفغاني خليجي قفازات، نقاب، برقع....)، إن هذه الرموز والتي تبدوا إنها خيارات شخصية للمرأة تتعلق بما تريد أن تلبسه في الواقع، تعبر عن مشهد الهزيمة النفسية والعدالة المزيفة في نفس الوقت، فهي لا تخرج عن كونها استجابة لخطاب التحقير والتقزيم وممارسة الوصاية على المرأة. لكنه رغم هذا ومن خلال ميكانيزمات الدفاع النفسي الذي تعمل عليه الشخصية موضوع الصراع، فإنها تظهره في شكل حياء زائد ورأس مطأطأ ينظر للأرض دون أن يكترث لما حوله من أشخاص أو أحداث، من أجل التماهي الإرادي الذي ينبغي ان يظهره الجسد الأنثوي المحجب في تقاطعاته الراهنية بالثقافة والتاريخ والدين.

ان المرأة كلما التزمت بالحجاب أو اللباس الذي تفرضه المؤسسات المهيمنة ذكوريا لتبقى تحت قبضتها، هذه القبضة التي تهيئ الجسد الأنثوي بشكل متفق عليه، تجعل من المرأة كائنا يبدي مقاومة سلبية اتجاه هذا العنف الرمزي، كون تلك التهيئة هي فوقية وتأتي بإجماع لم تكون طرفا فيه، بل تكون كاستجابة نسوية لمطالب ذكورية تمكنها من نيل حقها في التعليم والعمل والعلاج ومشاركة الرجل في الفضاء العام، وغيرها من الحقوق التي افتكتها المرأة وانتزعتها بالألم والمعاناة عبر الزمن، إذن يتحول الحجاب من لباس إلى شرط وجودي لا يتحقق دون استجابة لتلك الهيمنة الذكورية.

طبيعي أن يحمل الحجاب لمسة أنثوية جمالية، وفي هذا يمكن أن نبرز دور شركات النسيج ودور الموضة في جعل الحجاب أنماط وأنواع تلبي كل الأذواق النسوية، لكن الذي يبرز أحد صور العنف الرمزي هو تضمينه ذلك الخطاب الجمالي

الأخلاقي المعنوي المغلّف بالمقدس ترغيبا وترهيبا، وعلى الرغم من لمسة الجمال والموضة التي طرأت على الحجاب وإبراز ملامح الجسد الا ان شكل الحجاب يبرز محاولة أنثوية لامتصاص الحماسة الذكورية، كثقافة رقابية مسلطة على المرأة الجسد، بحيث يتحكمن فيانفعالات أفراد المجتمع ولا يدخلن في مواجهة و لا يجعلن من الحجاب موضوع صراع في الحياة اليومية، لذلك كثيرا ما نجد بعض أفراد المجتمع يعلقون على محجبة ما:"وهل هذا حجاب؟" لأنه حقيقة لا يعكس القناعة الدينية بقدرما يعكس الاستجابة الاجتماعية والتهرب من العقاب الرمز ي.

إن عمل آليات الدفاع النفسي على التحكم في الصراع الداخلي للذات المرأة هي التي أنتجت نمط الحجاب المعولم الذي يجمع الدين بالموضة في تناقض مظهري يعكس صراعا داخليا واجتماعيا أعمق، بل يختزله في الخمار أو يجتمع الالتزام بالتبرج واستعمال مختلف مساحيق التجميل، إنها صورة تبرز حجم التشوه النفسي الذي أحدثه العنف الرمزي والقهر الكامن في الهيمنة الذكورية على المرأة، إن منظومة القيم في ارتباطها بالنوع الاجتماعي تحت هيمنة خطاب سياسي وثقافي متناقض يجمع التقليدي بالحداثي في سياق يومي معاش.

ان ثنائية (مؤمن، كافر) تشرح ثنائية (محجبة، سافرة) لتجعل من الحجاب ضرورة دينية تعكس إيمان الفرد والتزامه بدينه مع أن الواقع يثبت أن الأخلاق لا علاقة لها بنمط اللباس، بل ويتم التعامل مع تحجب المرأة كأمر خطير وحساس لذلك يبدأ من سن مبكرة جدا، خاصة في دور الحضانة وأقسام التحضيري التي يسطر عليها السلفيون أو الإخوان.

ان خطاب التحقير والانتقاص من المرأة وقدراتها ماهو الا انعكاس لثقافة شعبية موروثة عن الإسلاف، اجتماعيا عندما تذكر المرأة في مجالس الأعيان والمشايخ يقول المتحدث "أكرمكم الله"، أو "العايلة حاشاكم" كما انها أم الاولاد أو "الدار" أو "العايلة" أو "لعجوز" المهم إن لا تذكر المرأة بذاتها وفي هذا السياق يقول حليم بركات أن المرأة العربية هي الكائن الوحيد الذي يعر ّف بغيره لا بذاته، فهي أم فلان أخت فلان أو بنت فلان...لكن ليست فلانة.

إذن هذا الخطاب الثقافي و الديني المتشدد يصطدم براهن تطغى عليه ثقافة عالمية تدعوا إلى الحرية والتعبير عن الرأي وعن الذات، تتيح بمختلف وسائلها التكنولوجيا الممتعة هامشا من الحرية في التواصل والتفاعل مع العالم الخارجي وقضاياه، لقد أتاحت مواقع التواصل الاجتماعي للمرأة في الجزائر كما في الوطن العربي فرصة المشاركة في المسيرات والحركات الاحتجاجية لإسماع صوتها وتقديم مطالبها.

والواقع أن النسوية تقوم على عنصرين: عنصر وصفي وعنصر معياري. يقول العنصر الوصفي بأننا نعيش في عالم أبوي حيث المرأة عرضة لاضطهاد منهجي لكونها امرأة. أما العنصر المعياري فيعلن أن هذا الاضطهاد غير مقبول أخلاقياً وأن علينا العمل لتحدي وإضعاف هذا النظام الأبوي. (شاهفيسي، 2015)

كما يعتمد النظام الأبوي/الذكوري على ركيزتين أساسيتين: أولاً، أن النساء هم مانحي الرعاية الأساسية في عالم لا يعطي قيمة للرعاية. وثانياً، أن النساء عبارة عن جسد وهرمفرطي الجنس في عالم يعتبر الجنس أمراً سيئاً وقذراً. إضافة الى هذا،

يعلمُ نا النظام الأبوي أن النساء، بطبيعتهن/بجوهرهن، يملكن هذه الصفات. (شاهفيسي، 2015)

على الرغم من تراجع الأبوية في المجتمعات العربية بانهيار العائلة كأبرز مؤسسة حاضنة لقيمها، الا ان الهمينة الذكورية لا زالت تحتفظ بتسلطها على المرأة وتحكمها في الجسد الأنثوي، إن هؤولاء الأفراد الذين يحتمون بالهيمنة الذكورية ويمارسونها تكون في الحدود التي تضمن مصلحتهم وتحققها، ويخرجون عنها إذا كانت لا تتلاءم مع توقعاتهم، وهنا يمكن ان نذكر الكثير من الحالات لمن يخطبون في الناس ويبرزون تمسكهم بالقيم وتجد زوجته غير محجبة خاصة في المدن الكبرى، وكأنه حداثي في أسرته رجعي خارجها.

إن الفرد في مجتمع يجمع من التناقضات ما يجعله معقدا عصيا على الفهم، يتقن أساليب التخفي لتعدد مواقع الاختفاء تارة باسم الدين وتارة باسم المجتمع وتارة اخرى باسم القيم، وهو ما يبقي الجسد الأنثوي موضوعا للعنف الرمزي وموضوعا للتخفي الدائم.

مثل هذه الأساليب النفسية والممارسات الاجتماعية تقتضي ان تكون المرأة الجسد خاضعة لما يريده المجتمع وفقا للثقافة ومحدداتها، وكأنه كلما يتطور المجتمع تتطور أساليب القمع والقهر والعنف الرمزي ضد المرأة.

**ثالثا.الحجاب والجندر:**

بحلول سبعينيات القرن العشرين، نجحت عالِمة الاجتماع البريطانية آن أوكلي (Ann Oakley) في إدخال مصطلح (Gender) للمرة الأولى في حقل الدراسات الاجتماعية في دراستها (Sex, Gender and Society. أرادت أوكلي أن تستخدم كلمة (Gender) عادلاً موضوعياً لاصطلاح (Sex) بوصفه تحديداً بيولوجياً في سياق العلوم الطبيعية.

ومن ثم فإن "الجندر" تُعنى ببحث مكانة الرجل والمرأة ودورهما في المجتمع، بصرف النظر عن الاختلافات البيولوجية بينهما. أو بعبارة أخرى: تتعلق الجنوسة بدراسة السلوك الاجتماعي للرجل والمرأة من منطلق الكينونة الإنسانية؛ ودراسة سلوك النساء وتصرفاتهن وفق الضوابط الاجتماعية في سياق مجتمع ما، فضلاً عن الأفكار النمطية التي تحظى بالقبول العام في المجتمع.

وهي بذلك تراعي وتستوعبالأنوثة بوصفها عنصراً أولياً، وفي الوقت ذاته تُعنى الجنوبدراسة الكيفية التي يمارس بها الرجل دوره الاجتماعي، المُعرَّف والقائم بدوره على رموز نمطية مجتمعية ذات أبعاد أخرى، تأخذ بعين الاعتبار الذكورة عنصراً أولياً، أي إنه يمكن القول: إن المنظور الجندري، ليس سوى تحليل **للانعكاس** الاجتماعي الحضاري لظاهرة بيولوجية بحتة.

وبالعودة إلى موضوع الحجاب فإننا نرى أنه لم يرتبط بشكل أساسي بالإسلام، لان القراءة المتأنية لحقبات غابرة من التاريخ الإنساني تجعلنا ندرك أن الحجاب أو

غطاء الرأس حتىبدأ مع ظهور أولى المجتمعات الأبوية ليتحو ّل هذا الغطاء مع الوقت إلى طريقة لإخضاع النساء أو السيطرة عليهن وتمييزهن طبقيا أو جنسانيا.

ولو نظرنا في الوقت الحاضر إلى انتشار الحجاب وأشكاله، لأدركنا أن الذ ُظم السياسية والجغرافية والعرقية تؤدي دوراً كبيراً ومحورياً في كيفية اختيار النساء تغطية رؤوسهن، وما إذا كان ذلك ممكناً . على الرغم من أن التفسيرات تختلف في ما إذا كان الحجاب فرضاً أما لا، إلا أن معظم المجتمعات العربية ترى في الحجاب أداةً لدرء شهوة الرجال وعدم إثارة غريزتهم الجنسية.

من خلال جعل النشاط الجنسي الأنثوي أمراً خطيراً على المجتمع، يمكن السيطرة على إمكانيات المرأة، وهذه الاستراتيجية ما هي إلا رد فعل عنيف ضد التهديد الذي يمثله تمكين المرأة على مكانة الرجل المهيمنة في النظام الاجتماعي ككل ّ . وفي هذا الإطار تقول شهيد: "المرأة لا تواجه الرجل ككائن على قدم المساواة، إنها تواجهه ككائن مختلف جوهرياً يجب أن ي ُعطى اختلافه رمزاً (حجاب) لعدم المساواة)

عربيا، يؤثر الحجاب الإسلامي بشكل مباشر وغير مباشر على الطوائف الأخرى. فتقول ريتا ستيفان في هذا السياق، في مقالها "الفضيلة والخطيئة: منظور المرأة العربية المسيحية"إن ّ "معظم النساء المسيحيات في سوريا لا يرتدين الحجاب، لكنهن يعشن في ظل قيود اجتماعية مختلفة يمكن أن تعمل بشكل أو بآخر كالحجاب". إذاً، وكما تقول فاطمة مرنيسي، "الحجاب ليس قطعة ملابس بقدر كونه محواً رمزياً لوجود المرأة في المجال العام." (medfeminiswiya، 2022)

وعن الحجاب أيضاً، تقول الباحثة مارنيا لازريغ في كتابها" سؤال الحجاب: رسالة مفتوحة إلى النساء المسلمات"، إن العديد من النساء يرتدين الحجاب كدليل على التزامهن بالإسلام، على غرار الطريقة التي يرتدي بها المسيحيون الصلبان أو الرجال اليهود الذين يرتدون (القلنسوة)، ومع ذلك، تتساءل لازريغ عن سبب كون تغطية المرأة لنفسها هي الطريقة الوحيدة التي يمكن للمرأة المسلمة أن تثبت فيها تقواها.

بدلاً من ذلك، تقترح لازريغ ألا يقتصر التعبير الديني للمرأة على قطعة من الملابس، لتوصل فكرة مفادها أنه لا يتم اضطهاد النساء من قبل الحجاب نفسه، لأن المؤسسات الأبوية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية هي من تحرمهن من حقوقهن في الحقيقة. (medfeminiswiya، 2022)

ليس الحجاب بتنوعاته ودلالاته وخطابه خاليا من البعد السياسى، بل كان وما زال فى قلب المشهد الاجتماعى والثقافى والسياسى العام. ولكن المواقف السياسية البحتة – إن جاز التعبير – تتوزع إزاءه على محورين: فرض الحجاب مقابل الدفاع عن التحرر منه، وحظر الحجاب فى مقابل الدفاع عن حق ارتدائه. فرض الحجاب تقوم به أنظمة ذات طبيعة دينية مثل المملكة العربية السعودية و إيران :عرفا عن طريق جماعات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (المطوعين) فى السعودية، أو عن طريق قانون مكتوب كما فى إيران. (عزت، 2018)

في الجزائر هناك تسامح حذر، فأجهزة الدولة لا تحبذ ظهور "الحجاب" فى الواجهة فظهور المحجبات محتشم فى قطاعات السياحة والإعلام والعلاقات العامة

وغيرها من القطاعات الرسمية، ولكن النخبة الحاكمة، مهما تكن كارهة للحجاب ودلالاته السياسية، لا يمكنها أن تذهب بعيدا بينما أغلبية الجزائريات "محجبات" بشكل ما.

إن النظم التى تفرض الحجاب ربما تعلن بوضوح عدم ديمقراطيتها أو تقدم ديمقراطية فى حدود ما وتحت وصاية ما (ولاية الفقيه فى إيران)، وعلى الجانب الآخر تعتبر النظم التى تقدم نفسها كدول علمانية ديمقراطية، أن ممارساتها إجراءات واجبة لحماية الديمقراطية و العلمانية. المشترك بينهما هو الوصاية والسلطوية سواء باسم الدين أو باسم العلمانية.

الوصاية فى دولة ذات مرجعية دينية أمر مفهوم، فالمرجعية الدينية فى حاجة إلى من يفسرها ويقننها ويقرها ويحرسها، ولكن العلمانية، التى ترد الأمر إلى الناس وتبدو لصيقة بالديمقراطيةحين تتذرع بحماية نفسها بإجراءات سلطوية، ترسّم دينا آخر، دين "القيم العلمانية" الذى تفسره سلطة ما وتقننه وتقره وتحرسه وتحمل الناس عليه قسرا. (عزت، 2018)

لليوم، تشكّل ثورة النساء الإيرانيات ضد الحجاب القسري فصلاً من الحكاية الطويلة، وهي ليست مجرد ثورة منفصلة عن رحلة استخدامات الحجاب الكثيرة من قبل السلطة البطريركية بأشكالها المختلفةثورة الإيرانيات بدايةٌ قوية لهزّ بطش النظام الأبوي القائم أساساً على إضعاف النساء وتكبيلهنّ بقيود كثيرة... ليس آخرها الحجاب.

## تمظهرات التدين في المعاش اليومي:

لم تكن المرأة في الجزائريوم ًا متقاعسة أو متخاذلة؛ فقد سطَّرت صفحات ناصعة بيضاء على امتداد التاريخ، والتاريخ مليء بالأمثلة؛ وأثبتت قدرتها على مشاركة الرجل في الحياة العامة، بل وتفوَّقت عليه أحياناً، لقد شاركت الثوار في حمل السلاح وقادت أعظم الثورات الشعبية ضد الاستعمار الفرنسي، وكانت مقاتلة وممرضة وعاملة وفدائية ومربية وربة منزل وزوجة تتحمل كل صعاب الحياة.وبالرغم من دور المرأة في بناء مجتمعنا، إلا حظها في المساواة والمساحات الممنوحة لها للمشاركة في مختلف الفعاليات الثقافية والسياسية مقيدة اجتماعيا.

إن محورية الدين في الحياة اليومية للفرد تجعل منه محور الاتفاق والالتقاء من جهة، ومحور الصراع من فئات مختلفة، باعتباره معيار تقويم للسلوك في ميادين مختلفة، ونجد من يميز بين الممارسات الدينية في المجتمع وما يتميز به من حركية في هذا المجتمع، حيث يرى علي الكنز في تحليلاته للتوجه الديني من خلال ممارسات الفاعليين الاجتماعيين للدين في الحياة اليومية بالمجتمع الجزائري، يميز بين عدة ممارسات دينية تكشف عن عدة أوجه متعددة للإسلام الممارس :"...**الإسلام الشعبي**، وهو التدين الشعبي ذو الخصائص التوفيقية والوظائف الاسترضائية علاقته ضئيلة بالتأويل النصي المكتوب وهو أكثر تفتحا وتسامحا...**الإسلام الأرثوذكسي** أو التقليدي، وهو تاريخيا نتاج جمعية العلماء المسلمين يتميز هذا الإسلام بانتشاره الواسع بين فئات الطبقة المتوسطة وبخاصة بين المدرسين والمربين والموظفين...أما النوع الثالث فهو ذلك الإسلام غير المرئي بسبب طقوسه الدينية التي تحميه... (الكنز،

1990)،وإذا كان النوع الثاني قريب من الدولة كما يرى الكنز لقبوله أن يستعمل من طرفها فان النوع الثالث يمثل الإسلام السياسي والذي اعتبر البديل الأساسي الذي فرض نفسه بعد أحداث أكتوبر 1988، وذلك لخطابه الانسيابي المستغل لارتباكات الدولة وتجاوزاتها واستثمار كل هذا على مستوى القاعدة الشعبية.

إننا نتكلم في هذه النقطة عن حقيقة اجتماعية ربما تثير الكثير من الجدل وهي كيف أنه ومنذ الاستقلال والدولة الوطنية في الجزائر تسعى إلى التحديث، وفي المقابل ينتعش التدين في زي تقليدي رجعي وتصبح من مكونات الهوية الفردية؟

إن للدين دورا أساسيا في تشكيل شخصية الفرد ووعيه وتفكيره، وعاداته ومواقفه وتصوراته لجوانب الحياة المختلفة، وفي هذا يقول مالك بن نبي:" الدور الذي يؤديه الدين حين يتدخل في التركيب الاجتماعي في شكل قيم أخلاقية، متجسدة في العرف والعادات والتقاليد والقواعد الإدارية والمبادئ التشريعية....فدور العنصر الديني كعامل نفسي دور لا من حيث انه يعمل في صورة مبادئ موجهة تنطبع في ذاتية الأنا لتصبح دوافع وقواعد للسلوك فحسب، ولكن لأنها كذلك تستطيع أن تتجلى في صورة تحريك مانع في بعض الظروف المرضية كما في حالة الكبت"،[2] فالعنصر الديني بصفة عامة فضلا عن انه يغذي الجذور النفسية العامة يتدخل مباشرة في العناصر الشخصية التي تكون الأنا الواعية في الفرد، وفي تنظيم الطاقة الحيوية التي تضعها الغرائز في خدمة الأنا...

ولما كانت هذه الطاقة الحيوية المنظمة تتحول الى نشاط اجتماعي لدى الفرد، وكان الفرد سببا في وجود النشاط المشترك للمجتمع خلال التاريخ، فان ذلك يرينا بصورة واضحة أهمية دور العنصر الديني بطريقتين:"فهكذا تظهر لنا أهمية الدين ودوره الحيوي ليس فقط من الجانب العقدي والفقهي ولكن كذلك من الجوانب النفسية والاجتماعية والثقافية والحضارية العامة، ويصبح عنصرا أساسيا مشكلا لهوية المجتمع.[3]"

والتدين كقيمة اجتماعية ليس بعيدا عن قيم الشباب وثقافته من الأزمة والتريب وهاجس الشك في ما يخص الأخلاق والقيم بصفة عامة، وشأنه شأن ينطوي على تناقضات وازدواجيات تنوع المرجعيات والوجهات المعيارية للفعل مع تشكيلة قيم متنافرة لا تأبه كثيرا بتجانس منظومتها، أو البحث عن أصولها ما دامت تحقق الحاجات الذاتية، وتبدو الظاهرة الاسلاموية الحالية ذاتية المنزع ومتمركزة أكثر في نطاق الحياة الخاصة، إنها تطرح بشكل جديد قضية التوفيق الممكن لتجديد ما هو تقليدي مع نمط من الفردانية، فهي : 4"حركة مزدوجة تجمع فردنة الدين مع عولمته الموسعة كونيا عرضا وتسويقا لتكون متاحة للجميع، فتخول إمكانية تدين فردي حسب الطلب."

فالمسألة هنا هي شخصية بدرجة أولى تسعى إلى إعطاء معنى للذات، كما أن التنشئة الأولية التي حصل عليها الفرد تحتاج إلى صياغة جديدة تتماشى مع معطيات

الواقع الموضوعية، لكنها تعبر عن حالة من المظهرية تنتقل من خلالها الشخصية من وضع إلى وضع آخر.

فالرجوع إلى الدين لا يتماثل مع نموذج التدين الذي وجدناه عند آبائنا والذي تقرره العادات التقليدية الموروثة والامتثال لما هو اجتماعي، في المقابل يضع التدين حرية تدبر الهوية الذاتية بين يدي صاحبها، ما دامت مؤسسات المجتمع لا تضمن لها الرعاية المطلوبة وإمكانيات تأمين المستقبل.

إذ يؤمن الفرد الجزائري مثلا بالمثل الشعبي القائل :"الرزق على ربي"،"إلى خلق ما يضيع"، إن من شأن وضعية عدم الثبات والرغبة في إثبات الذات شيئا فشيئا أن تجعل هذا التدين لا مباليا بما قد يتربص به من حظوظ العمل القار أو الوصمة الاجتماعية والسياسية التي قد تنعته: خوانجي، رجعي، أصولي..."، كما أن الحجاب عند بعض الفتيات يتخذ كإستراتيجية للزواج:" حابة ندبر راجل" كما لا تتورع محجبات أخريات عن عيش الحياة الحميمية في إطار تكوين صداقات، انه تحجب يتصالح مع الموضة العصرية وجمالية الشكل والحرية الفردية.5

ومن وراء هذا لا يمكن أن نتكلم عن الازدواجيات والأزمة القيمية والارتباك المعياري حين يتم الجمع بين نماذج الثقافة الدينية والثقافة العصرية المتساهلة أخلاقيا، وإنما ينبغي في تقديرنا أن ننظر من الآن فصاعدا إلى أن ما يحدث هو انتقال ضمني وتدريجي من نموذج تنشئة معيارية موكولة إلى المؤسسات الاجتماعية

التقليدية إلى تنشئة إستراتيجية تستند إلى تعلم مستمر لاستراتيجيات معرفية تمكن الفرد من قراءة الأوضاع التي يوجد فيها ويؤولها باعتبارها اختبارات ومشاكل.6

بهذا المعنى لم تعد وحدة الفرد المتجانسة تنجم عن المجتمع أو عن مؤسساته عن طريق التنشئة الاجتماعية، بقدرما تنبع من نشاط الفرد وما تمليه عليه الذات، أو نزعاته الفردية في تكوين توجهاته وسلوكاته وتبريرها وفق عوالم معيارية متعددة.

إن البحث عن الإتمام الشخصي عبر الدين (الحجاب)، قد يأخذ أحيانا منحى علاجيا، أو حتى براغماتيا للتعاطي مع المعايير الاجتماعية، أي التفاعل معها والتحايل عليها أحيانا وفق استراتيجيات **التخفي والتقنع**7 في بعض المواقف أو الظهور بمظهر التحجب المتأنق إلى حد الإغراء في مواقف أخرى، هكذا يكشف المجرى اليومي للتدين عما يعتمل فيه من تفاعلات قائمة بين الفرد والعالم الاجتماعي،الذي ينتمي إليه ويتحرك فيه، كما يكشف أيضا عما يسكن هذا التدين من مراوحات وازدواجيات في الفعل الاجتماعي.

إن التعددية والتعقد هما السمتان البارزتان للاجتماعي لكن المفارقة التي تلازم صيرورة التحديث، إنها لم تكن ببساطة مجرد فسخ التقليدية بل هي تقليدية متزاوجة مع الحديث، وهي حالة المجتمع الجزائري والتي لا يتفرد بها عربيا، فالتحديث حركية معقدة تتضمن إعادة ابتكار التقليدية وصياغتها بصفة دائمة، وكأنها تهجين الحديث والتقليدي تهجينا ينشىء حالة مستحدثة يسميها أ.جيدنز تحلل التقليدية، أي تفكك

القوالب الذهنية التي صيغت مع الحداثة الأولى ومع المجتمع التقليدي الذي سبقها، فهي القوالب الذهنية التي كانت تقوم على جملة المؤسسات الاجتماعية والمعايير الثقافية وكأنها مسلمات شبه طبيعية.8

## أسئلة تقويمية:

**قدمت المحاضرات مقاربتين للحجاب، اذكرهما؟**

**ما موقفك السوسيولوجي من الحجاب، كتعبير عن الديني في الفضاء العام.**

**قدّم قراءات علم الاجتماع النسوي لظاهرة الحجاب في المجتمعات الغربية.**